



«سلامة القس»

للأستاذ دريني خشبة

مهارة من مهارة مكة ، ذات عيني خُلقتا للحب ، وفهم
رأه الله للقرآن ، وصوت رفته للفناء ، وقلب صغير إلا أنه
فتي قوي زاهر ، لأنه استطاع أن ينجو من إبليس ، وأن
يقام على مرضاة الله !

نشأت سلامة في كنف رجل تقى ورع محافظ ، فكانت
ترعى له البهم في بطائح مكة تذهب بها خاسكاً وتعود بها بطاناً ،
ثم تحلب وتطهى وتخدم ، فإذا أوت إلى فراشها أخذت ترجع
بصوتها المحتجب ملء صدرها وحلقها وطى لسانها ، وتجذ في ذلك
الترجيع وهذا التسجيع لذة وراحة ... حتى إذا زارت مكة
جميلة المفضية ، وزلت في بيت ابن سهيل القريب من دار سلامة ،
وأخذت تملأ الدنيا كلها في هذا البلد الآمن غناء ، وتذيب
قلوب أهله شذوفاً ، كان قلب سلامة أول ناهل على ظها ،
وكان سمعها أول مستجيب على طول اصطبار ، وكان لسانها أول
مردد لألحان البلبل الفريد . وسمعها سيدها تجدف بهذا الفناء
فنهاها عنه ، ووكل إلى زوجته أمر مراقبتها ، وإغرائها بترتيل
القرآن ؛ فأطاعت سلامة ، لكنها كانت تطبق على آى الذكر
الحكيم أصوات جميلة وألحانها ، فلما سمعها مولاها جن جنونه
راشداً في أمرها ؛ وكانت سلامة ترى البهم يوماً ، فتركها
تخبر من رطب الكلا ما تشاء ، وجلست هي تملأ الهراء
بما ملأ صدرها من غناء ، فما نبتت إلا على صوت رقيق حلو
ذى رنين يكمل لها اللحن ويضبط لها النغم ، وإذا صاحب
الصوت راع صغير يتشم لها فتشم ، وإذا ما يتماهدان على أن
يكون أحدهما مملأً والثانية متعلمة ... بأجر زهيد ... قبله لقاء
كل لحن !!

ويضيق بها سيدها لأنها لم ترعو عن هذا الفناء
فبيعهما ابن سهيل صاحب القصر الذى نفذ منه إلى سمعها
وقلبها غناء جميلة ، والذي كان ندى الشمر والنعنع في
مكة ، بنشأ ابن ربيعة والأحوص والفريض والرجي
ومعبد وكثيرون غيرهم ... ويسلم ابن سهيل سلامة إلى زعماء
الفناء فتشتف عنهم ألحانها ، وتصبح فتنة الفن وربحانة القلوب ...
— وإلى هنا لا تكون المأساة قد بدأت بعد لأنها لا تبدأ إلا منذ
هذه المصادفة التي تبدأ العاصفة في حياة قديس !

لقد كان في مكة تقى من أتقياء المسلمين وأشدهم ورعاً ،
وكان يدمى عبد الرحمن بن عمار ، وكان يدعوه قومه القس ،
لصفاء نفسه وانصرافه عن الدنيا وإكبابه على الصلاة ، ولزومه
المسجد ، وزهده في مباهج الحياة ، واحترازه من شرارك الشيطان .
وكان عبد الرحمن يوماً ماراً بقصر ابن سهيل في طريقه إلى
المسجد ، فذا شده إلا أن سمع شذوفاً ينسكب في روحه وينساب
في دمه ، ثم يستقر في قلبه ليكتب في صفحته مأساة هذا الحب
الخالل والهوى الحلال والمشق المسكين

أبطأ عبد الرحمن في سيره ... لكنه عاد فاستماذ بالله ؛
وقبل أن يسرع إلى المسجد سمع منادياً بناديه ... فإذا هو
ابن سهيل يدعوه إلى جلسة في قصره يشرفه بها ... وكان
ابن سهيل قد رأى عبد الرحمن إذ وقف ساهماً مسبوهاً منصتاً
للفناء ، فسر أن يسحر صوت سلامة ألقى أتياء مكة وأصغى
أصغياتها ، فأقسم ليأتمرن بهذه النفس التي تجردت من الدنيا ،
ليرى كيف يكون عبد الرحيم بين تقواها وبين مفاتن سلامة ...
وتأبى عبد الرحمن أول الأمر ، ثم وعد أن يزور ابن سهيل وأن
يستمع إلى سلامة من وراء حجاب . وقد أجابه الرجل إلى هذا
الشرط ، ثم رآه مرة وقد نفذ سحر الفناء إلى أغوار نفسه وأخذ
يمصف بها عصفاً شديداً ، فسأله إن كان يسمح بدعوة سلامة
لتجلس إليهما وتغنى في حضرتيهما من دون ما حجاب ... وقبل
أن يجيب عبد الرحمن دعا ابن سهيل جاريته فأقبلت ... ولم تقبل
لتغنى فحسب بل أقبلت لتغزو من نفس عبد الرحمن ما لم يفزه
غناؤها ... لقد كانت جلالاً منوراً وحسناً مزهراً وبهجة سارية ،
فأهى إلا نظرة واستقرت من قلبه في قرار مكين !

ابن رمانة ... وعلمنا من صديقهما أنباء سلامة ففرحا واطمئنا ، وكان الرجل قد ذكر لها أشياء وأخفى عنهما أشياء ... ثم توجهها إلى ابن رمانة ، وحضرا مجلس غناء شددت فيه سلامة ، وأغمى على عبد الرحمن عند بيت من قصيدة له كانت تغنيها ، وكانا قد تلاحظا وتعارفا قبل الإغماء . فتولت سلامة العناية به حتى عاد إليه صوابه ، فما سلما حتى استخرطا في بكاء شديد

وخلا الرجلان بابن رمانة وعرضا عليه ما قدما من أجله ، فأوشك التاجر الذي لا يعرف إلا عواطف المال ولغة المكسب أن يبكي من التأثر ، ثم ألنى إليهما بالنبا الفاجع : « لقد اشتراها رسل الخليفة بمشرين ألفا ، فهي منذ اليوم ملك يزيد بن عبد الملك ... وغداً يذهبون بها إلى دمشق ! »

وإذا كانت الدنيا قد أصبحت ظلمات بعضها فوق بعض في عين عبد الرحمن حين اشترى ابن رمانة سلامة ، فيا ترى ! ؟ ماذا تكون حاله الآن ...

وترقى ابن رمانة فأذن للعاشقين بخلة ، تماهدا فيها بالصبر والصلاة . الصبر إلى يوم الدين إذ يلتقيان ... في جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ... والصلاة التي تهدي إلى هذه الجنات بإذن الله

هذه أيها القارئ قصة سلامة النفس التي أنشأها الأخ الصديق الأستاذ على أحمد باكثير ، والتي كان قد نشرها من قبل فصولاً في إحدى المجلات ، والتي تنشرها له اليوم « لجنة النشر للجامعيين » ضمن ما تنشره من كتب قيمة ، فتملاً بها في عالم القصة المصرية فراغاً كبيراً ، إن لم يكن فراغاً خفيفاً . والأستاذ باكثير أديب حضري كسبته مصر التي نشأ فيها وتخرج في الجامعة المصرية ، فهو يدين لمصر بتمله ، كما يدين لها بهذا الأدب الناضج المتشعب ، المتعدد النواحي ، فهو شاعر رقيق الشعر جيد المعاني ثائر على التقاليد ، وقد كتبت على أن أتكلم عن طريقته في الشعر المرسل لولا أشياء صرفتني عن ذلك إلى حين . وباكثير شاعر مسرحي أيضاً ، وله درامتان بالشعر المرسل هما إختاتون ونفرتيتي ثم إبراهيم باشا بطل مصر الخالد ، وتصور الأولى صفحة ناصعة من تاريخ مصر الروحي القديم ، كما تصور الثانية صفحة ناصعة من تاريخ مصر الحديث في سبيل العروبة التي نادى اليوم بوحدها ، وكان باكثير في المقدمة من دعائها بدرامته هذه ... ولولا أنه اختار باكثير لها تين الدرامتين

ومضت الأيام ... ولم يبال عبد الرحمن بما شرع أهل مكة بلوكونه عنه ويحكونه عن هيامه بسلامة ... وخلا بها مرة في قصر مولاهما فصرح الحب ، وباح الغرام ، وقالت له وقال لها ، ثم كانت سلامة أجراً منه فتشبهت أن تضع فيها على فمه ... لكن الله القدير آثر لها العفة ، واختار لغرامهما الطهر ، فعصر الشيطان عن نفس عبد الرحمن حفظاً لمرض صديقه ، وإبقاء على المحيط الذي يربطه بأسباب السماء ، وكان حسبه أن يترقى بصاحبه ، وأن يبق بسورتها إلى الله ... ساقيا هذا الهوى الملح ، والغرام المسرف بمض ما أسمدت عيناه من دموع ... ثم عاهدها على أن يعمل كما يعمل الناس ، حتى إذا اكتمل له ثمنها دفعه إلى ابن سهيل ثم أعتقها ، ثم تكون له بعد هذا زوجة !

وكان ابن سهيل رقيقاً بعدد الرحمن حين لحظ ما كان يعصف به من رياح هذا الحب ... فلم يلبث أن عرض عليه سلامة هدية خالصة ... إلا أن عبد الرحمن أبي ، وزاده إباء أن ابن سهيل كان إذ ذاك في عمرة من أحواله المالية ، فإذا اشتراها عبد الرحمن ببعض المال كان أصلح لابن سهيل وأوفق لظرفه الخاص ، ثم كان ذلك أكرم لهوى عبد الرحمن وأسنون لحبه ... ولم يبال ، وقد فكر هذا التفكير أن يبيع بعض عقاره ليشتري سلامة ... فلما فعل ، وذهب بالمال إلى ابن سهيل ، كان السيف قد سبق ... فقد باع القاضى جميع ما يملك ابن سهيل ، وسلامة في كل ما يملك ... لقد اشتراها ابن رمانة تاجر الجوارى بالمدينة ، ولقد دفع فيها غالياً

وكانت صدمة أى صدمة لعبد الرحمن ! لقد ضاقت به الدنيا ... وبكى أحر البكاء وأعنفه ، وكانت دموعه تتجح من أعماق قلبه لا من أغوار عينيه ... لكنه احتمل ... وانتوى أن يعمل أضاف ماعمل ليرضى شهوة المالك الجديد الذي اشترى سلامة تجارة رابحة وصيداً ليس مثله صيد !

ثم مضت الأيام كما مضت من قبل ... أو أشد مما مضت من قبل ، وريح عبد الرحمن مالا جماً ، وكان هذه المرة يعمل مع ابن سهيل ؛ فلما بارك الله لها ، شدا رحلهما إلى المدينة بعد أن تجهزا ... من أجل سلامة ... وكان قلب عبد الرحمن يحدته عند كل نسيئة ، وكانت مشاعره تهيج عند كل مقام ... لأن سلامة صرت من قبل بتلك الثنية أو قامت بهذا المقام ... ثم نزلاً ضيقين عند أحد الأصدقاء بالمدينة ، قبل أن يتوجهها إلى دار